تصدير الطبعة الثانية

سبق أن طُبع كتاب « منهج البحث التاريخى » فى القاهرة سنة ١٩٤٣ . وقد نفدت طبعته الأولى بعد صدوره بقليل، لقلّة العدد المطبوع منه . ومنذ ذلك الوقت سألنى بعض أصحاب المكتبات وبعض الطلاب وبعض الزملاء فى هذه البلاد وفى غيرها من البلاد العربية ، عن إمكان الحصول على نسخ منه أو عن النظر فى إعادة طبعه .

ورأيت أخيرًا أن أعيد طبع هذا الكتاب ، وأسفت لأن وقتى لم يتسع لتعديل مضمونه على نحوٍ أوسع ، إذْ أن أكثر وقتى مُستغرق فى عملٍ ، يجمع بين الأدب والفن والتاريخ ، بدأتُه منذ ربع قرن ، وأرجو أن تُتاح لى فرصة إكماله . وعلى كل حال فقد أدخلت على هذا الكتاب بعض الإضافات والتعديلات اليسيرة . وأعتقد أن إعادة طبعه بهذه الصورة لا يخلو من النفع لطلاب التاريخ ودارسيه بخاصة ولطلاب العلم والمعرفة بعامة .

وإنى أضمّ هذه الطبعة من هذا الكتاب إلى سائر الكتب العربية ، التى صدرت منذ أواخر الثلاثينيات ، والتى تتناول « موضوع دراسة التاريخ » أو « منهج البحث فيه » والتى أمكننى الوصول إليها ، وقد أشرت إليها فى قائمة المراجع ، مؤملا أن تحقق جميعًا الغرض الذى وُضعت من أجله .

وإنى أتقدم بالشكر والإعزاز إلى جماعة من الأصدقاء الذين كان لهم الفضل فى إعادتى نشر هذا الكتاب بالتشجيع الأدبى ، أو بشرح مسألة ، أو بإطلاعى على بعض الكتب القيمة ، أتقدم بالشكر إلى الأساتذة والدكاترة جمال الدين الشيال ، والسيد الباز العرينى ، ورشاد عبد المطلب ، ومحمد محمود الصياد ، ومحمد محمد طيفور ، ومحمد عبد الفتاح القصاص ، والشاطر بصيلى عبد الجليل ، ومحمد الخولى ، ورينيه خورى ، وعلى النشار .

وأتقدم بجزيل الشكر إلى رجال دار المعارف لما بذلوه من الجهد ورحابة الصدر فى سبيل إخراج هذا الكتاب .

وإنى أنتهز هذه الفرصة لتحية الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ بالجامعة اللبنانية فى بيروت ، ورائد هذه الدراسة المنهجية فى اللغة العربية بالمعنى العلمى الحديث .

وأرجو أن يأتى فى المستقبل مَنْ يفعل فى هذا الصدد أفضل مما فعله السابقون .

حسن عثمان

معهد الدراسات الأفريقية
بجامعة القاهرة
٣٣ شارع المساحة — الدقى
١٥ أكتوبر ١٩٦٤

تصدير الطبعة الأولى

انقضى ذلك الزمن الذى اعتُبر فيه التاريخ مجرد سرد للحوادث ، لكى يحفظ ذكرى الماضى ويمجد الأفعال البارزة فى حياة الأشخاص والأمم ، أو أنه نوع من الثقافة العامة اللازمة لإعداد الرجال للحياة السياسية أو الحربية ، أو أنه فرع من فروع الأدب يُدرس للتسلية وإمتاع النفس . وظلّ التاريخ يتداوله الأدباء حيناً والباحثون المدققون حيناً آخر ، حتى تغيرت نظرة العلماء إليه ، ووُجد البحث العلمى التاريخى ، وقصد الدارسون الوصول إلى الحقيقة التاريخية فى ذاتها بقدر المستطاع ، والتى عن طريقها يُمكن الإفادة بها فى الأغراض السالفة الذكر ، ولكن الفائدة فى هذه الحال تُصبح قائمة على الوقائع الصحيحة الواضحة . وبذلك توطّدت قواعد الدراسة التاريخية فى أوروپا فى القرن الماضى ، وعُنيت البيئات العلمية بجمع الأصول التاريخية ، ونشرها ، والتأليف فى شتّى نواحى التاريخ وبدراسة « منهج البحث التاريخى » .

وإن « منهج البحث التاريخى » لمن الأسس الهامة فى تقدم دراسة التاريخ . وقد عُنى به الغربيون ، ووضعوا فيه مؤلفات عديدة فى لغاتهم المختلفة ، واسترشد بقواعده الباحثون فى أثناء دراساتهم التاريخية ، ولكن الشرق العربى قليل الحظ من دراسة « منهج البحث التاريخى » بالأسلوب الحديث ، على الرغم من الجهود التى بذلها بعض المشتغلين بالتاريخ قديماً وحديثاً . ووُجدت أخيراً محاولة لدراسة هذه الناحية الهامة . فالدكتور أسد رستم يقوم بتدريس « منهج البحث التاريخى » منذ سنوات فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وقد نشر نتيجة دراسته فى كتابه القيم « مصطلح التأريخ » فى صيف سنة ١٩٣٩ ، وكان أول كتاب فى اللغة العربية عن « منهج البحث التاريخى » بالمعنى العلمى الحديث .

وأرجو أن تُعنى الهيئات العلمية فى مصر ، وبخاصة كليتى الآداب بالقاهرة والإسكندرية ، العناية الواجبة بهذه الدراسة . فمما لا ريب فيه أن دراسة « منهج

البحث التاريخى » ضرورية للمختصين فى التاريخ ، ممّن يتصدّون لكتابته ، أو للمشتغلين بتدريسه للطلاب ، أو للطلاب أنفسهم ، فضلاً عن أن هذه الدراسة ينبغى أن تكوّن جزءاً من ثقافة جمهور المتعلمين بصفة عامة ، لأنها تشحذ الذهن ، وتعلّم العقل العمل المنتظم ، وتدرّبه على النقد والتمحيص .

وإنى أقدّم هذا الكتاب — الذى سبق أن نشرت بعض فصوله فى مجلة الرسالة — خلاصة لبعض المؤلفات الأوروپية ، مثل كتابات لانجلوا وسينيوبوس وفلِنْج وفنسنت وكروتشى . . . مع الاسترشاد ببعض ما كتبه علماء المسلمين فى الرواية والحديث ، كما أضفت بعض الأمثلة التى عرضت لى فى أثناء البحوث التاريخية التى قمت بها .

وأرجو أن يحقق هذا الكتاب بعض النفع الذى وُضع من أجله ، وأن تتلوه كتب أخرى عن النواحى المختلفة فى دراسة التاريخ . وإنى أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذ مصطفى السقا المدرس بكلية الآداب بجامعة (القاهرة) لتفضله بمراجعة المخطوطة وبتصحيح الكتاب ، كما أشكر زملائى الذين شجعونى على إتمامه .

كلية الآداب بجامعة (الإسكندرية) فى يناير ١٩٤٣

مقدمة

معنى التاريخ – هل التاريخ علم أم فن – أهمية دراسة التاريخ – بعض صفات المؤرخ – منهج البحث التاريخى – دراسة آثار الإنسان ومخلفاته – تحديد قيمة المؤلفات التاريخية .

ما المقصود بدراسة التاريخ ؟ وهل تستحق دراسة التاريخ كل ما تبذله الأمم المتحضرة فى سبيله من عناء وجهد ومال وزمن ؟ وهل يستدعى مضمونه الغور فى أعماقه إلى هذا الحد ؟ وما الذى يمكن أن نفيد به من دراسة التاريخ وكتابته ؟ لكى نصل إلى رأى مناسب بصدد هذه الأسئلة يحسن بنا أن نشير أولا إلى ما يمكن أن يدل عليه لفظ « التاريخ » .

يدل لفظ « التاريخ » على معان متفاوتة . فيعتبر بعض الكتاب أن التاريخ يشتمل على المعلومات التى يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله ، بما يحويه من أجرام وكواكب ومن بينها الأرض ، وما جرى على سطحها من حوادث الإنسان . وبدأ المؤرخون الأقدمون كتاباتهم بالكلام عن نشأة الأرض . ومن المحدثين نجد المؤرخ هـ . ج . ولز * يبدأ كتابه فى « موجز تاريخ العالم » بدراسة نشأة الكون والأرض ، وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة ، وهو فى ذلك يفعل كما يفعل المصوّر أو المثّال الذى يعمد إلى تشريح جسم الإنسان أو الحيوان ، حتى يمكنه أن يرسم الصورة أو يصنع التمثال ، على أفضل وجه مستطاع . ثم يتدرّج ولز فى عرض تواريخ الأمم والشعوب والحضارات المختلفة منذ نشأتها حتى العصر الحديث معبرًا فى ذلك عن وحدة البشرية ، على الرغم من جزئيات تواريخها وتفصيلاتها .

* هربرت جورج ولز (١٨٦٦ – ١٩٤٦ . Herbert George Wells) الروائى الاجتماعى المؤرخ المصلح اليوتوبى الإنجليزى . حصل على البكالوريوس فى العلوم من جامعة لندن واشتغل بتدريس العلوم ثم عمل بالصحافة وكان عضواً بالجمعية الفابية . وصف فى مؤلفاته مساوئ العصر وتطلع إلى بناء عالم جديد على أساس من الاشتراكية والعدالة . ويمتاز أسلوبه بالحيوية والصدق والبساطة والوضوح . ومن مؤلفاته « عصر الآلة » و « الرجل غير المرئى » و « حرب العوالم » و « رجال فى القمر » و « اليوتوبيا الحديثة » و « كيبس » و « زمان الصاروخ » و « موجز تاريخ العالم » . ويؤخذ عليه التسرع فى أحكامه وعدم صبره على التطور الديموقراطى الوئيد .

ويقصر أغلب المؤرخين معنى التاريخ على بحث واستقصاء حوادث الماضى ، كما يدل على ذلك لفظ (historia) المستمدّ من الأصل اليونانى القديم ، أى كل ما يتعلّق بالإنسان منذ بدأ يترك آثاره على الصخر والأرض [١] ، بتسجيل أو وصف أخبار الحوادث التى ألمّت بالشعوب والأفراد . وقد تدل كلمة تاريخ على مطلق مجرى الحوادث الفعلى الذى يصنعه الأبطال والشعوب[٢]، والتى وقعت منذ أقدم العصور ، واستمرت وتطورت فى الزمان والمكان حتى الوقت الحاضر .

وفى اللغة العربية التاريخ والتأريخ والتوريخ يعنى الإعلام بالوقت . وقد يدلّ تاريخ الشىء على غايته ووقته الذى ينتهى إليه زمنه ، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة . وهو فن يبحث عن وقائع الزمان من ناحية التعيين والتوقيت وموضوعه الإنسان والزمان ، ومسائله أحواله المفصّلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة للإنسان وفى الزمان[٣] .

وحينما أخذ الإنسان البدائى منذ فجر المدنية يقصّ على أبنائه قصص أسلافه ممتزجةً بأساطيره ومعتقداته ، بدأ التاريخ يظهر إلى حيّز الوجود فى صورة بدائية أولية، وبدأ الإحساس به يتكوّن فى ذهن البشرية منذ أقدم العصور ، وتدرّج التعبير عن التاريخ مختلطاً أولاً بعناصر من الفن ، كالرسم والنقش على الحجر . وعندما

---

(١) Oman, Ch. : On The Writing of History. London, 1939. p. 2.

(٢) هرنشو ، ف : علم التاريخ . ترجمة عن الإنجليزية وتعليق وإضافة بقلم عبد الحميد العبادى القاهرة ، ١٩٣٧ ص ٨ .

والأستاذ العبادى (١٨٩٢ – ١٩٥٦) ولد وتوفى بالإسكندرية . درس فى مدرسة المعلمين العليا ، وأسهم فى بناء لجنة التأليف والترجمة والنشر . وكان ذواقاً للأدب ودارساً منهجياً للتاريخ الإسلامى . وعلم فى كليّتى الآداب بالقاهرة والإسكندرية وفى الجامعة الأزهرية وفى دار المعلمين العالية فى بغداد . وقام بعدة أسفار إلى أوروبا . وله كتب مترجمة ومنشورة . وامتاز بهدوء الطبع ووقار العلم . وكنت واحداً من تلاميذه وزملائه وأصدقائه .

(٣) السخاوى ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . القاهرة ، ١٣٤٩ ﻫ . ص ٧ .

وولد السخاوى فى القاهرة سنة ١٤٢٧ ودرس بها وتنقل بين مصر والشام والحجاز وصار من علماء التاريخ والحديث . وتوفى فى المدينة سنة ١٤٩٧ . ومن كتبه « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » و « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » .

سارت البشرية قُدُمًا فى مضمار الحضارة فى شتى أساليبها وصورها ، رويدًا رويدًا ، أخذ التاريخ يُشكّل أساسًا جوهريًا فى تسجيل موكب البشرية الحافل الدؤوب ، إذْ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذى يقدّم لنا ألوانًا من الأحداث وفنونًا من الأفكار وصنوفًا من الأعمال والآثار .

ومهما كان من أثر القوى الإلهية أو الميتافيزيقية العليا التى يمكن أن تسيطر على مصائر البشرية وأحداث التاريخ ، وهى ما لا يقوى الإنسان بعدُ على إدراك كنهها وفهم أسرارها ، فإن التاريخ يتخذ مجراه على يد الإنسان بطريق مباشر ، وفى ظروف معينة . والإنسان ابن الماضى ، وهو ليس ابنًا لأبويه فحسب ، بل هو ثمرة الخَلْق كله منذ أزمان سحيقة . والعلاقة وطيدة بين حياة الفرد وبين الحياة فى القرون والعُصُر الماضية . ويذهب بعض المفكرين مثل بِنِدِتّو كروتشى إلى اعتبار التاريخ كله تاريخًا معاصرًا . ولا يستطيع الإنسان أن يفهم نفسه وحاضره دون أن يفهم الماضى . ومعرفة الماضى تُكسبه خبرة السنين الطويلة ، والتأمل فى الماضى يبعد بالإنسان عن ذاته ، فيرى ما لا يراه فى نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه ، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه ، وأقدر على حُسْن التصرف فى الحاضر والمستقبل .

ولكى ندرك أهمية الماضى وضرورة دراسة التاريخ ، فَلْنفرض جدلا أننا استطعنا بطريقة ما أن نقطع صلتنا نهائيًا بالماضى ، وأننا أمكننا أن نحرق دور الكتب ، وندمر كل آثار العمران الراهنة ، وننسى أنفسنا ، فماذا يُنتظر أن تكون عليه حال الإنسان ومصير الحضارة بعدئذ ؟ فى الأغلب سيحاول الإنسان أن يعود لكى يبدأ من جديد أشياء تشبه أو تختلف عما كان قد بدأه منذ آلاف السنين ، حتى يصل إلى مستوًى ما ، سواء أكان قريبًا أم غير قريب من المستوى الذى قطع عنده صلته بماضيه السحيق . فماضى الشعوب وماضى الإنسان حافل بشتى الصور ، وهو عزيز عليه فى كل أدواره ، سواء أكانت عهود المجد والقوة والرفاهية ، أم عهود الكوارث والآلام والمحن . والأقوام الذين لايعرفون لهم ماضيًا محددًا مدروسًا بقدر المستطاع ، لا يُعدّون من شعوب الأرض المتحضرة .

ونحن إذ تصفحنا كتابًا عامًا وافيًا عن تاريخ الحضارة الإنسانية ، مثل

كتاب « قصة الحضارة » الذى ألّفه ولا يزال يؤلفه ويل دورانت الأمريكى * ، نجده قد وضع فى أول الأمر خطةً لصدور كتابه فى خمسة أجزاء . ولكنه عدّلها وزادها إلى سبعة أجزاء ، ثم عدّلها ثالثةً وزادها إلى عشرة أجزاء ، وصد رمنها منذ سنة ١٩٣٥ حتّى سنة ١٩٦٣ ثمانية أجزاء ، وهى (١) تراث الشرق القديم ، (٢) حضارة اليونان ، (٣) عصر قيصر والمسيح ، (٤) عصر الإيمان ، (٥) عصر النهضة ، (٦) عصر الإصلاح الدينى ، (٧) بداءة عصر البحث العقلى ، (٨) عصر لويس الرابع عشر . وقد شاركته فى إعداد هذه الأجزاء ، وفى كتابة هذا الجزء الثامن تلميذته وزوجته آريل . ويبقى جزءان قيد الدرس والبحث وهما (٩) عصر ڤولتير ، وكان من المنتظر صدوره فى سنة ١٩٦٥ ، و(١٠) عصر روسُّو والثورة الفرنسية الكبرى حتّى سقوط الباستيل فى سنة ١٧٨٩ ، وكان من المنتظر صدوره فى سنة ١٩٦٨ ، ولم أتمكن من الحصول عليهما بعدُ ، مع الأسف ، مع سماعى بصدورهما . وقرأت أيضاً أن ويل دورانت قد أصدر فى سنة ١٩٦٩ جزءاً مكملا لهذه السلسلة بعنوان دروس أو عبر التاريخ ، ولكنى لم أتمكن بعدُ من الحصول عليه .

وتناول المؤلف فى الأجزاء التى صدرت من هذا الكتاب أوجه النشاط الإنسانى المتنوعة والظروف التى لابستها ، منذ أقدم العصور حتّى عصر لويس الرابع عشر ، وسيصل فيما بعد إلى سقوط الباستيل فحسب ، دون أن يتابع دراسة تاريخ الحضارة الإنسانية بعد ذلك ، على اعتبار أنها لا تزال فى دور الغليان والتكوين ، مما يجعل الكتابة عنها أمرًا أبعد عن مجال قدرته العلمية . وفى الأجزاء المشار إليها شرح ويل دورانت حال الإنسان فى بيئته البدائية ، ووصف نموه التدريجى ، وتناول سير الحضارة وتطورها ، ودرس البيئات والملوك والحكام ورجال الدولة ، وتناول مشاكل السياسة والحرب والسلام ، ودرس مسائل الفلسفة والفكر والدين والعلم والأدب ، وفنون التصوير والنحت والعمارة ، وفنون الموسيقى ، وشرح أحوال المجتمع ،

---

* ويل دورانت (Will Durant) ولد فى ولاية ماساشوستس بالولايات المتحدة الأمريكية فى سنة ١٨٨٥ . ودرس فى نيوجيرسى وفى جامعة كولومبيا فى نيويورك . ودرس التاريخ والأدب والفلسفة . وقام برحلات عديدة فى أنحاء العالم ، وتزوج من إحدى تلميذاته التى عاونته فى البحث والتأليف .

ووصف ما نالته الأمم من المجد والرفعة والمنعة ، وما أصابها من الهبوط والتدهور والانحلال . وفى سبيل ذلك طاف المؤلف فى صحبة زوجته كثيراً من أنحاء الأرض مرات عديدة متتالية ، ومضيا معاً باحثين مُنقبين مُشاهدين مُتأملين مُستلهمين معارفهما وخبراتهما من شتى الأصول والمصادر والآفاق ، فجاء الكتاب وافياً شاملاً ، مع تميزه بالبساطة والسهولة والوضوح والسلاسة والعمق والذوق الرفيع ، فضلاً عن عنايته بذكر فيض من المصادر والمراجع لِمَنْ يرغب فى الاطلاع والبحث مزيداً * . والكتاب فى هذا كله يحاول أن يعطينا صورة — أقرب إلى الصحة - بقدر المستطاع — عن المجتمع الإنسانى وهو فى حالة حركة دائبة لا تفتر ولا تهدأ أبداً ، إذْ هى الحياة بذاتها مهما كان اتجاهها أو لونها . وهذه الحركة الإنسانية لا تتكرّر ولا تُعيد نفسها على المنوال الذى حدثت به فى عهدٍ مضى . وعلى الرغم مما يمكن أن يوجد بينها من أوجه الشبه ، فلاسبيل إلى أن يكون التشابه القائم بينها تشابهاً مطلقاً ، لاختلاف المكان وتغير الزمان .

وعلى ذلك فإننا نجد أنه لا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائناً اجتماعياً . فينبغى عليه أن يعرف تاريخ تطوّره وتاريخ أعماله وآثاره ، فيدرس مثلاً العوامل التى أدت إلى حدوث الغارات والحروب وما لابس ذلك . وما خلّفته

---

* Durant, W. : The Story of Civilization :

- I. Our Oriental Heritage. New York, 1935.
- II. The Life of Greece. New York, 1939.
- III. Caesar and Christ. New York, 1944.
- IV. The Age of Faith. New York, 1950.
- V. The Renaissance. New York, 1953.
- VI. The Reformation. New York, 1957.
- VII. The Age of Reason Begins. New York, 1961.
- VIII. The Age of Louis XIV. New York, 1963.

وكان متبقياً فى هذه السلسلة جزءان كانا فى طريق الإعداد على أن يصدرا كالآتى :

- IX. The Age of Voltaire (1965).
- X. Rousseau and Revolution (1968).

وقد قامت الإدارة الثقافية بالجامعة العربية بالقاهرة على نشر ترجمة هذا الكتاب منذ ١٩٤٩ ، واشترك فى ترجمته الدكتور زكى نجيب محمود والأستاذ محمد بدران . وصدر من الترجمة ٢١ جزءاً حتى ١٩٥٩ . ويقوم الآن الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس بمتابعة ترجمة هذا الكتاب . وعلى الرغم من فائدة الترجمة يحسن أن يرجع طالب التاريخ إلى الأصل للتقوية فى اللغة الإنجليزية .

من الآثار، ويتتبّع مثلاً حركة الكشف الجغرافى فى أواخر القرن الخامس عشر، وما ترتب على ذلك من تغير طريق التجارة العالمى بين الشرق والغرب، وما أدى إليه من تدهور أمم وارتفاع أخرى. وينبغى عليه مثلاً أن يدرس العوامل التى أدت إلى ظهور نظام دستورى معين، ويفهم روحه ومضمونه، ويتبين أثره فى هيئة الحاكمين وفى مجموع الشعب، وينبغى عليه مثلاً أن يدرس الأسباب التى أوجدت أنواعاً جديدة من الأدب، أو ألواناً جديدة من فنون التصوير والنحت والعمارة، أو أساليب جديدة من فنون الموسيقى، ويبين إلى أى مدى ارتبط ذلك كله بالعصر وبالبيئة وبالعبقريات الأدبية والفنية التى خلقت هذه النماذج المبتكرة فى مختلف مجالات الأدب والفن، وما إلى ذلك من أوجه النشاط الإنسانى ومقوّمات الحضارة.

وفى أواخر القرن الماضى ومطلع القرن الحالى اختلف بعض رجال العلم والتاريخ والأدب، فى وصف التاريخ بصفة العلم أو نفيها عنه. فقال بعض العلماء — مثل و. س. جيڤونز[1]— إن التاريخ لا يمكن أن يكون علماً لأنه يعجز عن إخضاع الوقائع التاريخية لما يخضعها له العلم من المعاينة والمشاهدة والفحص والاختبار والتجربة، وبذلك لا يمكن فى دراسته استخلاص قوانين علمية يقينية ثابتة، على نحو ما هو موجود بالنسبة لعلم الطبيعة أو علم الكيمياء مثلاً. ومما يبعد بالتاريخ عن صفة العلم، فى نظرهم، قيام عنصر المصادفة، ووجود عنصر الشخصية الإنسانية وحرية الإرادة، مما يهدم الجهود الرامية إلى إقامة التاريخ على أسس علمية، على نحو ما يفعل علماء الطبيعة أو الكيمياء وأضرابهم.

ويرى بعض رجال الأدب أنه سواء أكان التاريخ علماً أم لم يكن، فهو فن من الفنون، وأن العلم لا يمكنه أن يعطينا عن الماضى سوى العظام المعروقة اليابسة، وأنه لا بد من الاستعانة بالخيال لكى تُنشر تلك العظام وتُبعث فيها الحياة، ثم هى بحاجة كذلك إلى براعة الكاتب حتى تبرز فى الثوب اللائق بها[2]. فمثلاً

---

(١) وليام استانلى جيڤونز (William Stanley Gevons. ١٨٨٢–١٨٣٥) من رجال الاقتصاد والمنطق. درس فى جامعة لندن وعلم بها بعض الوقت. وكتب «نظرية الاقتصاد السياسى» و«المنطق البحت» و«دراسات فى المنطق الاستقرائى» و«أصول العلم». وقد جعل نظرية المنفعة أساس بحوثه فى الاقتصاد السياسى. وامتاز بعمق التفكير، ومات غرقاً.

(٢) هرنشو: (المصدر المذكور) ص ٣ و ٤.

لا يستطيع العلم الطبيعى أن يفسر لنا حريق موسكو فى عهد ناپليون بوناپرت فى سنة ١٨١٢ ، إلا على أساس قوانين الاشتعال . ولا بد من تدخل المؤرخ لكى يشرح الأسباب والظروف السياسية والعسكرية التى أدت إلى ذلك الحريق[١]، ولا بد من قلم المؤرخ — أو قلم الأديب — لكى يصف لنا الحريق وما تركه من الآثار . فكل من العالم الطبيعى والمؤرخ يشرح الحادث بطريقته ، وكل منهما يكمل الآخر ، وكلاهما ضرورى لتقدم المعرفة الإنسانية .

ويرى ف . هرْنشو أنه على الرغم من أننا لا يمكننا أن نستخلص من دراسة التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن فى العلوم الطبيعية ، فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم . وعنده أن العجز عن بلوغ أغراض محددة فى دراسة المتيورولوجيا مثلاً ، بسبب عدم دقة قوانينها ، لا يُجيز نفى صفة العلم عنها . وعنده أنه يكفى فى إسناد صفة العلم إلى موضوع ما ، أن يمضى الباحث فى دراسته ، مع سعيه إلى توخى الحقيقة ،وأن يؤسس بحثه على حكم ناقد اطرح منه هوى النفس ، وباعد نفسه عن كل افتراض سابق ، مع إمكان التصنيف والتبويب فيه[٢] .

ويقول ف . هرْنشو إن التاريخ ليس علم تجربة واختبار ، ولكنه علم نقد وتحقيق ، وإن أقرب العلوم الطبيعية شبهاً به هو علم الجيولوجيا . فكل من الجيولوجىّ والمؤرخ يدرس آثار الماضى ومخلّفاته ، لكى يستخلص ما يمكنه استخلاصه عن الماضى والحاضر على السواء . ويزيد عمل المؤرخ عن عمل الجيولوجى من حيث اضطرار الأول إلى أن يدرس ويفسر العامل البشرى الإرادى الانفعالى ، حتّى يقترب بقدر المستطاع من الحقائق التاريخية[٣] . وعلى ذلك نجد التاريخ مزاجاً من العلم والأدب والفن فى وقت واحد .

وإذا كان علم التاريخ ضرورياً للدراسة الخاصة والعامة ، ولثقافة الشعوب بعامة ، فلا بد من بحثه ودرسه وكتابته ، قبل أن يُدرس فى المدارس والمعاهد ، وقبل

---

(١) Fling, F.M. : The Writing of History, An Introduction to Historical Method. New Haven, Yale Un. Press, 1926. p. 20.

(٢) هرنشو : (المصدر المذكور) ص ٦ و ٧ .

(٣) هرنشو : (المصدر المذكور) ص ١٢ ، ١٣ .

أن يُقَدَّم للمختصين وللمثقفين على السواء . وينبغى أن يتم ذلك بطريقة وافية دقيقة صحيحة ، بقدر ما فى طاقة المؤرخين من جهد وصدق وأمانة وعدل وذكاء وإحساس وفن وذوق ، وبقدر ما يتاح لهم من زمن وإمكانيات فى بلدهم ، وفى مواطن البحث والدرس فى أنحاء الأرض ، على أن يكون هدفهم الحقيقة التاريخية بقدر المستطاع ، ولا شىء سوى ذلك .

ولا يُدرس التاريخ عفوًا ولا يُكتب اعتباطًا ، وليس كل مَنْ يحاول الكتابة فى التاريخ يصبح مؤرخًا ، كما قد يتصوّر بعض الناس ، أو كما يتخيل بعض الكتاب ، حينما يسطّرون صفحات طويلة عن حوادث ماضية أو معاصرة ، ويعتقدون بذلك أنهم يكتبون تاريخًا ، ما داموا قد أمسكوا بالقلم والقرطاس ، ودارت لهم المطابع ، وملأت كتاباتهم رفوف المكتبات ! فلا بد من أن تتوفر فى المؤرخ الصفات الضرورية وأن تتحقق له الظروف التى تجعله قادرًا على دراسة التاريخ وكتابته .

فمن الصفات الواجب توفرها فى المؤرخ — كما فى غيره من الدارسين — أن يكون محبًا للدرس جلدًا صبورًا ، فلا تمنعه وعورة البحث ولا المصاعب والعقبات عن مواصلة العمل ، ولا توقفه ندرة المصادر ، ولا يصرفه عن عمله غموض الوقائع والحقائق التاريخية واختلاطها أو اضطرابها . وينبغى عليه أن يقضى الشهور والسنوات وهو يعمل ويرتحل من بلد لآخر ، فى وطنه وفى كل مكان يمكن أن يعثر به على ما يفيده . وينبغى عليه ألا يتسرع أو يقتضب تعجيلاً لنيل منفعة ، لأن هذا سيكون على حساب العلم والحقيقة التاريخية .

وينبغى على المؤرخ أن يكون أمينًا شجاعًا مخلصًا ، فلا يكذب ، ولا ينتحل ، ولا ينافق أصحاب الجاه والسلطان ، ولا يُخفى الوقائع والحقائق التى قد لا يعرفها غيره فى بعض الأحيان ، والتى قد لا ترضيه أو لا ترضى قومه ، إذْ أنه لا رقيب عليه غير ضميره . ومَنْ يخرج على ذلك لا يمكن أن يعدّ مؤرخًا . ولا ريب أن الكشف عن عيوب الماضى وأخطائه تفيد إلى حا كبير فى السعى إلى تجنب عوامل الخطأ فى الحاضر ، وعدم الكشف عنها يُعدُّ تضليلاً وبُعدًا عن التبصر والمصلحة الوطنية . وقد يكون إخفاء الحقيقة التاريخية عملاً وطنيًا فى بعض الظروف ، كما

تفعل كل الأمم ، ولكن لا بد من ظهور الحقيقة بعد زوال الضرورة التى دعت إلى إخفائها ، حتى يمكن استخلاص أكبر قسط من الحقيقة التاريخية . ولا يمكن أن يُكتب التاريخ بغير التوصل إلى الوقائع الصحيحة .

ويلزم للمؤرخ أن تتوفر له ملكة النقد ، فلا يجوز له أن يقبل كل كلام أو يصدق كل وثيقة أو مصدر بغير الدرس والفحص والاستقراء ، فيأخذ الصدق ، أو أقرب ما يكون إليه ، ويطرح جانباً ما ليس كذلك . وإذا أعوزت المؤرخ ملكة النقد سقطت عنه صفته ، وأصبح مجرد شخص يحكى كل ما يبلغه على أنه حقيقة واقعة . وليس بهذا يُدرس أو يُكتب التاريخ .

وينبغى على المؤرخ أن يكون بعيداً عن حب الشهرة والظهور ؛ وألا يحفل بالكسب والألقاب والجاه والمناصب ، وأن يكرّس نفسه لعمله العلمى فى صمت وسكون ، من دون أن يوزّع جهده هنا وهناك ، ودون أن يقوم بأعمال أخرى ، نافعة بغير شك ، ولكن يمكن أن يقوم بأدائها آخرون على خير وجه ، إذ أن الحقيقة العلمية التى قد يكشف عنها تعدل كل ألوان الكسب وصنوف المناصب أو تزيد عنها . وهؤلاء العاكفون المتفرّغون للدرس والبحث فى كافة العلوم والفنون — ومنهم المؤرخون — هم الذين يقوم على أكتافهم — على نحوٍ أساسىٍّ — تقدّم الإنسانية وازدهار الحضارة .

ومن الضرورى أن يكون المؤرخ — كغيره من رجال العلم — ذا عقلٍ واعٍ مرتّبٍ منظمٍ ، لكى يستطيع أن يميّز بجلاء بين الحوادث ، وينسّق أنواع الحقائق ، ويفيد بها فى الموضع المناسب ، ولكى يكون قادراً على تحديد العلاقة بين حوادث التاريخ فى الزمان والمكان ، ويربط بينها على اتساق وتوافق . وبغير ذلك تختلط الحوادث أمام المؤرخ وتضطرب تفصيلاتها ويعجز عن الربط بينها ، ويفقد صفته كمؤرخ .

ومن الصفات الأساسية للمؤرخ عدم التحيّز . فعليه أن يحرّر نفسه بقدر المستطاع من الميل أو الإعجاب أو الكراهية لعصر خاص أو لناحية تاريخية معينة . وهو بمثابة القاضى الذى لا يكون حكمه أقرب إلى العدل إلا بقدر المستوى الذى يصل إليه من البُعد عن التحيز والهوى . وكيف ننتظر مِمَّنْ بلغ إعجابه أو كراهته

لعصرٍ ما حدّ التحيز ، أن يكتب تاريخًا علميًّا ؟ ألن تكون كتابته ملونةً بالتحيز الذى يجعلها تميل إلى جانب أو آخر ، مما يبعد بها عن بلوغ الحقيقة التاريخية ؟

وينبغى على المؤرخ أن يكون صاحب إحساس وذوق وعاطفة وتسامح وخيال ، بالقدر الذى يتيح له أن يدرك آراء الغير ونوازع الآخرين . وبذلك يمكنه أن يتلمس أخبار الإسكندر ، وقيصر ، وعمر بن الخطاب ، وصلاح الدين الأيوبى ، وابن رشد ، وميكلأنجلو ، وباخ ، ولويس الرابع عشر ، ونابليون ، ونلسون ، ومحمد على ، وأحمد عرابى . . . . . ويحسّ ما جاش بصدورهم من شتّى العواطف ، ويفهم بقدر المستطاع الدوافع التى حركتهم لاتخاذ سلوك معين فى الزمن الماضى ، ويشارك رجال الأمس مواقفهم فى ساعات التاريخ الفاصلة ، فى فترات الانقلاب ، وفى عهود المقاومة ، وفى ظروف النجاح والفشل . وإن آثار الإنسان لتتحدّث إلى قلب المؤرخ المجيد فيجد فى ثناياها صدى البشر وصدى نفسه ، وتتجلّى فيه روح العلم والفن ، ويبعث التاريخ حيًّا ، ويحيا فى التاريخ ، ويعيش للتاريخ .

وإذًا فما الطريق الذى نسلكه لدراسة التاريخ وكتابته ؟وما منهج البحث الواجب اتباعه فى دراسة التاريخ وكتابته ؟

منهج البحث التاريخى هو المراحل التى يسير خلالها الباحث حتّى يبلغ الحقيقة التاريخية – بقدر المستطاع – ويقدمها إلى المختصين بخاصة والقراء بعامة . وتتلخص هذه المراحل فى تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له ، ثم اختيار موضوع البحث ، وجمع الأصول والمصادر ، وإثبات صحتها ، وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه ، وتحرّى نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها ، ونقدها نقدًا باطنيًّا إيجابيًّا ، وسلبيًّا ، وإثبات الحقائق التاريخية ، وتنظيمها وتركيبها ، والاجتهاد فيها، وتعليلها ، وإنشاء الصيغة التاريخية ، ثم عرضها عرضًا تاريخيًّا معقولاً .

وينبغى علينا أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة التاريخية الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، إذ أن هذا أمر غير مستطاع لعوامل مختلفة ، مثل ضياع الأدلة وانطماس الآثار ، ومثل الأغراض والمصالح . ومَنْ ذا الذى يمكنه أن يعرف

الحقيقة المطلقة فى الماضى أو الحاضر ؟ وهل يمكن للإنسان آن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة ؟ فالحقيقة التى يصل إليها المؤرخ هى حقيقة صحيحة نسبياً ، وكلما زادت نسبة الصدق فيها اقترب التاريخ من أن يصبح تاريخاً بالمعنى الصحيح ، فى حدود إمكانه .

وحينما يعكف المؤرخ على دراسة التاريخ ، لن يجد الوقائع أو الحوادث ماثلة أمامه ، وعليه عندئذ أن يتجه إلى دراسة وفحص مخلفات الإنسان وآثاره ، من كتابات ونقوش ومصنوعات ومنشآت . وآثار الإنسان كلها ، تحمل بين طياتها أسرار الحوادث وخفايا التاريخ . وهى تظل أبداً صامتة لا تبوح بأسرارها ، إلى أن يتمكن المؤرخ بالدراسة الطويلة وبالتأمل العميق من أن يحملها على النطق ، وعلى التعبير عن أسرارها وخفاياها .

ومن الأمثلة التى تساعدنا على إدراك ما يواجه المؤرخ من الصعوبات أن بعض آثار الإنسان قد تُشيَّد للمبالغة والتعظيم ، مثل أقواس النصر التى أقامها نابليون فى بعض الولايات الألمانية ، والتى لا تدل حتماً على أنه أصبح سيد أوربا على الدوام ، أو النوط الذى ضربه تذكاراً لنزوله فى إنجلترا ، مع أن ذلك لم يحدث تاريخياً ، وسيبقى هذا النوط كذكرى لأمل لم يتحقق ؛ أو تمثال الرجل الذى يقتل الأسد ، مع أن ذلك لا يحدث إلا نادراً ، والأغلب أن الأسود هى التى تفتك بالرجال ، ولو استطاع الأسد أن يصنع تمثالاً لفتكه بالإنسان لصحّ الوضع ، ولكان ذلك معبراً عن الحقيقة * . وأحياناً قد يعثر المؤرخ على وثائق مزيفة ، سواء أكان ذلك بقصد الدعاية أم الدفاع عن فكرة معينة ، أم من أجل الشهرة ، أم للاتجار والكسب . وعلى ذلك ينبغى أن تدرس آثار الإنسان ومخلّفاته بروح النقد والحذر ، وكما سنعرف أشياء من ذلك فى فصول تالية .

وتتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بعض الأسس الجوهرية . فأولا : ينبغى أن يُفحص نوع المادة التى استقى منها الباحث معلوماته ، أهى نقوش أو آثار قديمة معاصرة ثبتت صحتها وصحة معلوماتها ، أهى أصول ووثائق ومراسلات مستخرجة من دور الأرشيف التاريخية وثبت أنها غير مزيفة ، وأن معلوماتها صحيحة ، وأنه

---

* Oman: op. cit. p. 26.

لم يسبق نشرها ، أو على الأقل لم يسبق استخدامها بدرجة كافية ؟ أم أن المادة التى اعتمد عليها الباحث هى مجرد مراجع ثانوية ليست ذات قيمة علمية ؟

وثانياً : تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على قدرة الباحث على الدرس والبحث ، وقدرته على نقد ما تحت يده من الأصول والمصادر والمراجع ، وطريقته فى استخلاص الحقائق وتنظيمها وتفسيرها وعرضها . ويختلف الباحثون فى النقد وفى استخلاص الحقائق بحسب اختلافهم فى الفهم والتفسير والاستنباط . وأحياناً يضطر الباحثون فى التاريخ إلى وضع افتراضات مختلفة لمحاولة فهم مسألة تاريخية ، تواجههم فيها غوامض وفجوات . وأحياناً يختلف الباحثون فى تقدير معنى الحوادث من ناحية الخلق أو السياسة أو الاقتصاد ، وبذلك تأتى كتاباتهم متفاوتة أو مختلفة . على أن ذلك كله يقدم للمؤرخ آراء ووجهات نظر مختلفة متفاوتة عن عصر أو ناحية معينة ، ولا يمكن أن يحتكر أحدها صفة الحقيقة ، وهى كلها تعطى للتاريخ الحركة والحياة . وتجعل البحث التاريخى مستمراً على الدوام ، باحتمال ظهور أدلة جديدة تلقى ضوءاً جديداً على ما قد يكون غامضاً أو مبهماً من أحداث التاريخ . وبالعكس عدم الاختلاف وعدم التفاوت يسببان الجمود والركود فى دراسة التاريخ ، وفى سائر ألوان العلوم والمعارف ، وفى شتى مظاهر الحياة على وجه العموم .

وثالثاً : تتحدد قيمة التاريخ المكتوب بناء على بُعد الباحث عن التحيز والأهواء ، ومطابقته للواقع بقدر المستطاع . وأحياناً يتأثر الباحث بروح عصر معين ، مثل عصر الحروب الصليبية أو عصر الانقلاب الصناعى أو نمو الديموقراطية أو ظهور الاشتراكية . . . فيكتب وهو يحاول إخضاع الموضوع المعيّن لرأيه وفكره . والكتابة التى يطعن فيها كاتب مسيحى على المسلمين فى زمن الحروب الصليبية أو العكس ، لا تُعدّ فى إطلاقها صحيحة . فالكتابة التى يتعمّد فيها الكاتب أن يتخذ اتجاهاً معيناً ، قد تُعدّ تاريخاً لنوع من التفكير أو النزعات الإنسانية الجديرة بالدراسة ، ولكن لا يمكن أن يُعد ما جاء بها معبراً عن الحقيقة التاريخية ، بالنسبة لما تناولته من الموضوعات .

وبمعنى آخر يمكننا أن نقول إن قيمة التاريخ المكتوب تتحدد بناءً على ثقافة

الباحث ، وإلمامه بطريقة البحث التاريخى ، وبناءً على استعداده الشخصى وملكاته . وكثير من كتب التاريخ تُعدّ من أمتع ثمرات العقول لنضج عقلية المؤرخ ، وثقافته الواسعة ، وخبرته الوطيدة ، وتبصّره ، ونجاحه فى إعطاء وحدة واضحة جامعة ، وذلك بعكس كثير من الكتب التى تُنسب للتاريخ ظلماً وافتئاتاً ، والتى يكتبها مَنْ لايفهم التاريخ ،ومَنْ لايملك النقد ، ومَنْ لايتصف بالصبر والجلد والصدق ، ومَنْ لايطلب سوى المنفعة . ولن تزيد مثل هذه الكتابة عن مجرد معلومات موضوعة بين دفتى كتاب . وتصبح مثل هذه الكتب غير جديرة بأسمائها ، وقد لا تساوى الورق الذى طُبعت عليه .